أوربا والمسلمون: صورة الآخر
رؤية أسيرين أوروبيين من القرن الخامس عشر الميلادي

د. حاتم الطحاوي(*)

أثرت الرؤية الأولى للإسلام من قبل المسيحية الشرقية(1) في كافة ردود أفعال أوروبا في العصور الوسطى حيث طغت الرؤى السلبية وساهمت في رسم وتوجيه السياسات الأوروبية تجاه الإسلام والمسلمين.

ومن نافلة القول أن نذكر النخبة الأوربية التي صاغت تلك الرؤى جاءت من رجال الكنيسة، باعتبارهم القادة الروحيين للشعب المسيحي. والوحيدون الذين حظوا بقدر لا بأس به من التعليم في أوروبا العصور الوسطى.

ونتيجة لحركة الفتوحات الإسلامية التي نجحت في هزيمة الجيوش البيزنطية في معارك اليرموك وأجنادين 16 – 17هـ/ 636 – 640م(2)، فقدت الإمبراطورية البيزنطية معظم الأراضي التي كانت تسيطر عليها في بلاد الشام. قبل أن ينجح المسلمون بعد ذلك في فتح

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى – آداب الزقازيق.

(1) عن الرؤى المبكرة للإسلام. راجع:

Sahas, D, Jhon. F Damascus on Islam: "The Heresy of the Ismaelites", Lieden, 1972; Kotter, B, Die Shriften des Johnnes von Damaskos, (Patristische Texte und Studien) vol. 4, New York, 1981; Muir. W, The Apology of Alkindi Written at the Court of Al Mamun in Defence of Christianity Against Islam, London, 1883; Hoyland, R, Seeing Islam As Others Saw it. A survey and evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian writings on Early Islam, Newjersey, 1997.

(2) انظر: ابن أعثم (أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي)، الفتوح، ج1، بيروت، د.ت، ص218 – 244؛ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، ج3، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1979م، ص394 – 418، 605 – 607.

فلسطين 18هـ - 638م[1]، ومصر 20هـ - 640م[2].

وبعد فشل ما قامت به الإمبراطورية البيزنطية من رد فعل عسكري في مواجهة الفتوحات الإسلامية، بدأت في منظومة من رد الفعل على المستوى الثقافي. وفاضت كتابات غزيرة على المستوى الرسمي تتهم الدين الجديد بأنه مجرد هرطقة مسيحية جديدة، وتقرن ما بين الإسلام والوثنية من ذلك ما أورده بطريرك كنيسة القسطنطينية جرمانوس الأول Germanus I (715 – 730م) الذي دبج رسالة زعم فيها أن المسلمين قوم وثنيون يعبدون إلهاً حجرياً Chobar في شبه الجزيرة العربية[3].

على أن المؤرخ البيزنطي ثيوفانس Theophanes (760 – 817م) يعد أول من صاغ رؤية بيزنطية متكاملة تجاه الإسلام والمسلمين[4] تأثرت بشكل كبير بالكتابات المسيحية الشرقية الأولى التي تحاملت على الإسلام ونبيه. وسار على نفس النهج نيكيتاس البيزنطي Nikitas of Byzantium (842 – 912م) الذي وصفا المسلمين بالوثنيين الذين يتبعون "أساطيرا محمدية"[5].

---

(1) البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) فتوح البلدان، تحقيق عبد الله وعمر الصباغ، بيروت، 1987م، ص231 – 249، الطبري، المصدر السابق، ج3، ص607 – 613.

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص298؛ الطبري، المصدر السابق، ج4، ص104 – 110؛ ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الشيباني)، الكامل في التاريخ، ج2، 1987م، ص405.

(3) Hoyland, op. cit, pp. 105 – 106.

(4) عن ذلك راجع:

Theophanes The Confessor, Chronographia, trans. By, C. Mango and R. Scott, Oxford, 1997, pp. 464 – 465.

وعن موقف ثيوفانس من فتح المسلمين للشام وفلسطين. راجع: طارق منصور، المسلمون في الفكر المسيحي، العصر الوسيط، القاهرة، 2008م ص 137 – 200.

(5) Nicetae Byzantini Philosophi Confutatio Falsi Libri Quem Scripsit Mohamedes Arabs, in, PG 105: 707 – 708, 775 – 779, 793

وانظر أيضا:

وفي الغــرب الأوربي شــكل العديــد مــن الكتــاب والمــؤرخين مثــل فريــديجاريوس Fredegarius[1]، وبيده Bede وأنستاسيوس Anastasius أمين مكتب البلاد البابوي في روما الرؤى المبكرة لغرب أوروبا تجاه الإسلام والمسلمين. حيث تابع الأوربيون منذ البداية أخبـار الآخـر المسـلم بعـد نجاحـه في انتـزاع بـلاد الشـام ومصـر وشمـال إفريقيـة مـن قبضـة البيـزنطيين، إلى أن أصبح في مواجهـة الغرب الأوروبي بشـكل مباشر بعـد نجاح المسـلمين في فتح الأندلس 732م[2] وتوغلهم حتى جنوب فرنسا.

على أن المساهمة الكبرى التي زادت من التصورات والرؤى الأوروبية السلبية تجاه الإسلام جاءت من قبل البابوية الكاثوليكية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، عبر خطبة الباب أربـان الثـاني Urban II (1088 – 1099م) في مجمـع كليرمونـت بجنـوب فرنسـا 1095م، التي دعـى فيهـا للحركة الصـليبية وقتـل المسـلمين الـوثنيين، أعـداء الـرب المسـيحي، مقابـل الحصـول علـى الغفـران[3]. تلـك الـرؤى الـتي آمنـت بهـا وكرسـتها كتابـات المـؤرخين الصليبيين المعاصرين للحملة الصليبية الأولى.

حدث هذا قبل أن تتبلور بعد ذلك وابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي بعض الرؤى

With Islam: A study of Demetriades, . M., Nicetas of Byzantium and his Encounter the "A Natrope" and the Two "Epistles" to Islam, Ph. D. Thesis, The Hartford Seminary Foundation, 1972.

(1) The Fourth Book of The Chronicle of Fredegar with its Continuations, Trans. By, J. M. Wallace- Hadrill, M. Y, 1960, PP. 54 – 55, 68 – 69, 90 – 91; Hoyland, op. cit, pp. 422, 524 – 525.

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص323، ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة، 1982م، ص 29، 33.

(3) عن نصوص خطبة البابا أربان الثاني في مجمع كليرمون. ارجع إلى:

Fulcher of Charter, Historia Hierosolymitana. A History of The Expedition to Jerusalem 1095 – 1127, Trans. By, Frances Rita Ryan, Xnoxville, 1969, pp. 61 – 69, in RHC, oc,iii, Paris, 1866, pp 727 – Robert The Monk, "Historia Iherosolimitana" 730.

الأوروبية المعتدلة عن الإسلام ونبي المسلمين بعد وصول الصليبيين واستقرارهم في بلاد الشام. وكذلك بفض عمليات الاحتكاك مع التجار المسلمين الذين مارسوا التجارة مع الغرب الأوروبي والإمبراطورية البيزنطية، لدرجة وجود حي إسلامي ضم هؤلاء التجار في العاصمة القسطنطينية استمر حتى غزو المدينة بواسطة الحملة الصليبية الرابعة عام 1204م[1].

وظل الدين بعد ذلك يمثل عاملاً حاسماً في العلاقات التركية البيزنطية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين عبر أعمال الجهاد التي قام بها الأتراك السلاجقة والدانشمنديون[2]، ثم العثمانيون الذين نجحوا في قضم الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى قبل العبور الكبير إلى القارة الأوروبية عام 1354م[3].

وإزاء الضعف البيزنطي تجاه العثمانيين استغل السلطان بايزيد الأول (1389 – 1402م) المعروف بالصاعقة Beyazit Yildrem هذا الوضع ليفرض شروط ذات دلالة دينية على الإمبراطور البيزنطي مانويل باليولوجس من ضمنها ضرورة بناء مسجد جديد

(1) عن ذلك انظر:

Chaniates, N, O city of Byzantium. Annals of Nikitas Choniates, Trans. By, Magoulias, H. J, Detroit, 1984, pp. 302 – 303, 405. note 1472; Madden, T.F, "The Fires of The Fourth Crusade in Constantinople, 1203 – 1204, A Damage Assessment, in, B. Z, Vol, 84 – 85, 1991, pp. 76, 90 – 92.

(2) انظر: ابن البيبي، مختصر سلجوق نامة (أخبار سلاجقة الروم)، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحة، 1994م، علي بن صالح المحاميد، الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، الإسكندرية، 1994م.

(3) قام الإمبراطور البيزنطي يوحنا السادس كانتاكوزينوس John vi Cantacauzenus (1347 – 1355م) بالاستنجاد بالسلطان العثماني أورخان Orkhan الذي أمده بقوات ساعدته على الانتصار في الحرب الأهلية البيزنطية وفي تثبيته على العرش في القسطنطينية. حدث هذا قبل أن ينجح أورخان وقواته في العبور للضفة الغربية لمضيق البوسفور والاستيلاء على مدينة غاليبولي Gallipoli عام 1354م. عن ذلك انظر:

Asikpasa oglu Tarihi, Hazirlayan, A. Nihal Atsiz, Ankara, 1985, pp. 51 – 53; Doler. F. regesten der Kaiserurkunden des Ostromis Schen Reiches, 565 – 1453, 2 Teil 1025 – 1204, Munchen, 1925, p. 36.

للمسلمين في القسطنطينية، فضلاً عن ضرورة وجود قاض مسلم للحكم بين السكان المسلمين المقيمين بها(1). حدث هذا قبل أن ينجح العثمانيون في فتح القسطنطينية في العام 1453م(2).

ومنذ وقت مبكر لم تكن البابوية الكاثوليكية لتستكين أمام الزحف العثماني الذي توغل في بلاد البلقان. فدعت إلى قيام حملة صليبية جديدة عام 1396م. غير أن السلطان العثماني بايزيد Beyazid، الذي اضطر لرفع حصاره عن القسطنطينية آنذاك، تمكن من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش المسيحي الكبير المؤلف من آلاف المجريين البلغار والفرنسيين والإنجليز عند مدينة نيقوبوليس Nicopolis(3) في العام 1396م. فضلا عن تمكن العثمانيين من أسر المئات من الجنود المسيحيين.

ونظرا لتوفر كتابات النخب الأوربية الكنسية والعلمانية، تحاول هذه الورقة تلمس صورة أخرى مغايرة عن الإسلام والمسلمين في كتابات تعبر عن مشاعر الأوروبيين العاديين، وبشكل خاص أفراد الطبقة غير المثقفة من الجنود والأسرى وما يحملونه من رؤى منبثقة من ثقافتهم المحدودة التي أنتجت تصورات شعبية متباينة عن الآخر المسلم. كما تعكس في نفس

(1) Doukas, M, Dicline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, Trans. By, Magoulias, H. J, Detroit, 1975, pp. 83 – 84; Asik pasa oglu, op. cit, pp. 68 – 69.

(2) عن المصادر الأصلية للفتح العثماني للقسطنطينية 1453م. راجع:

Nicolo Barbaro, Diary of the siege of Constantinople 1453, trans, by, J. R. Jones, New York, 1969; The Siege of Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts, trans. By, J. R. Jones, Amesterdam. 1972.

ولهذين الكتابين ترجمتين باللغة العربية. انظر: حاتم الطحاوي، الفتح الإسلامي للقسطنطينية 1453 (دراسة وترجمة وتعليق)، القاهرة، 2002م، الحصار العثماني للقسطنطينية 1453م. سبعة مصادر معاصرة، القاهرة، 2003م.

(3) عن انتصار العثمانيين على القوى الأوروبية المسيحية في موقعة نيقوبولس راجع المصادر التالية:

Doukas, op. cit, pp. 83 – 85; Chalcocondylas, L, Historiarum Demonstrations, ed. B. G, Niebuhrii, book ii, in, C. S. H. B, Bonne, 1841, pp. 75 – 77; Froissarat, Chronicle of Froissart, trans. By, John Bouchier, London, 1930, pp. 422 – 447.

الوقت صورة تلقائية غير متعمدة، وإن كانت بطبيعة الحال متأثرة بالأوضاع الاجتماعية والثقافية لأصحابها، والناتجة في الحالتين موضوع الدراسة عن اختلاط ما يمكن تسميته بحالة "الإسلام الشعبي" و"المسيحية الشعبية"، خاصة في حالة وقوع الجندي المسيحي في أسر الجنود المسلمين لسنوات طويلة، بالإضافة إلى الاختلاط الحاصل بالفعل في مناطق التماس بين الحدود الإسلامية والمسيحية في أراضي الأناضول والبلقان وأراضي القبيلة الذهبية وغيرها.

كان الفتى الألماني يوهان شيلتبرجر Johan Schiltberger في الرابعة عشرة من عمره عندما غادر منزله القريب من مدينة ميونيج 1394م، لمرافقة سيده الأمير لينهارت ريتشارتجنر Leinhart Richartinger واللحاق بالحملة الصليبية التي دعا إليها سيجموند Sigmond ملك المجر لمحاربة العثمانيين في نيقوبوليس 1396م عندما سقط أسيرا في قبضة الجنود العثمانيين(1).

وبعد أن ذكر لنا كيف نجا من عملية إعدام الأسرى لصغر سنه، أشار إلى الاحتفالات العثمانية بالنصر في نيقوبوليس التي كانت أبرز مظاهرها إرسال السلطان العثماني بايزيد للعديد من الأسرى إلى الممالك الإسلامية، كدولة المماليك. وحكام العراق وفارس، وتتار قبيلة الشياه البيضاء. كما ذكر أنه كاد يرسل ضمن الأسرى المتجهين للسلطان المملوكي برقوق في القاهرة(2)، لولا إصابته بجروح خطيرة ليبقى لدى العثمانيين حيث عمل في حاشية السلطان العثماني بايزيد خادما أو جنديا للمراسلة Runner لست سنوات قبل أن ينتقل

(1) Schiltberger, J, The Bondage and Travels of Johann Schitberger, A narrative of Bavaria in Europe, Asia, and Africa 1996 – 1427, trans. By, Buchan Telfer, N.Y, 1879, p. 4.
(2) Ibid, p. 7.
ولدينا مصدر تاريخي كتبه التاجر البندقي مانويل بيلوتي Emmanuel Piloti أشار في إلى إرسال العثمانيين لمائتين من أسرى موقعة نيقوبولس للقاهرة. وأنه شاهد هؤلاء الأسرى في البلاد المملوكي. راجع:
Traite d' Emmanuel Piloti sur Le passage en Terre Saint (1420), Paris, 1958, p. 229.

بعدها إلى حاشية تيمورلنك بعد نجاح العاهل المغولي في هزيمة وأسر السلطان بايزيد في موقعة أنقرة 1402م.

وهكذا ظل ملازماً لسيده الجديد ثلاث سنوات حتى وفاته عام 1405م[1]، لينتقل بعدها إلى خدمة ابنه شاه رخ ثم إلى أبي بكر بن ميران شاه. قبل أن يهبه الأخير مع أربعة من الأسرى المسيحيين، فضلاً عن ستمائة فارس، إلى صديقه المغولي جكرة أوغلان Tchekre الذي كان مقيماً لديه، قبل أن تصل إليه الرسل من قبل الأمير إديجاي Edegi، المهيمن على الأحوال السياسية، بضرورة الوصول لاستلام العرش الشاغر في خانية قبيلة المغول الذهبية[2].

وظل شيلتبرجر أسيرا حتى نجاحه في الهرب إلى وطنه في ألمانيا عام 1427م. وهناك أملي كتابه الذي أرخ فيه لفترة الأسر الطويلة.

وهكذا عاش الأسير الألماني، محافظا على مسيحيته الكاثوليكية، أكثر من ثلاثة عقود «1396 – 1427م» في كنف المجتمعات المسلمة في أراضي العثمانيين والمغول. الأمر الذي جعله يمر بتجربة فريدة من نوعها مكنته من الاقتراب من المسلمين والدين الإسلامي وشعائره عن كثب. الأمر الذي جعله يخصص أكثر من عشرة فصول في كتابه للحديث عن الإسلام والمسلمين (الفصول 45 – 55). وذلك بفضل ثقافته المسيحية التي لازمته طوال فترة الأسر، فضلا عن البيئة والمناخ الثقافي الذي عاش داخله في معية الجنود العثمانيين والمغول.

أما الأسير المسيحي الثاني، فكان الصربي قسطنطين ميخائيلوفتش Konstantin Mihailovic التابع للكنيسة الصربية التي تبنت المذهب الأرثوذكسي لكنيسة القسطنطينية

(1) Ibid, pp. 29 – 30.
(2) Ibid, p. 33.

البيزنطية[1] منذ القرن العاشر الميلادي، فقد سقط مع أخويه في قبضة الحملة العثمانية التي أرسلها السلطان محمد الفاتح لمهاجمة الصرب بعد نجاحها في الاستيلاء على مدينة نوفوبرادو Novobrado عام 1455م. وفي طريق العودة، حاول ميخائيلوفتش الهرب مع مجموعة من رفاقه الأسرى عبر الغابات والجبال، غير أنهم فشلوا في ذلك، مما دفع العثمانيين إلى القبض عليهم من جديد[2].

وخلال فترة الأسر لدى العثمانيين، عمل ميخائيلوفيتش جندياً في فرقة الانكشارية Janissary في الجيش العثماني، فشارك مع جنود السلطان الفاتح في حصار مدينة بلجراد في العام التالي 1456م، وكذلك في الحملات على المورة 1458م وطرابيزون 1461م وضد دراكولا Dracula حاكم ولاشيا عام 1462م[3].

كما اشترك في نهاية خدمته العسكرية في الحملة العثمانية على البوسنة عام 1462م. وأثناء ذلك تواجد ميخائيلوفتش مع الجنود العثمانيين في قلعة Zvecej قبل أن يهاجمها ملك المجر ماثيوكورفينوس ويقوم بأسره ضمن حاميتها من الانكشارية[4]. وهكذا عاد إلى بلاده وهو غني بخبراته وذكرياته عن ثماني سنوات من الأسر (1455 – 1462م) قضاها بين العثمانيين المسلمين، حيث خلف كتاباً استعاد في ذكرياته مع الانكشارية، وانطباعاته عن الدولة العثمانية والإسلام.

ويجب علينا قبل الولوج إلى ما ذكره الأسيرين: شيلتبرجر وميخائيلوفيتش من انطباعات عن الدين الإسلامي والمسلمين، أن نذكر بأن ما كتباه لا يمكن أن ينفصل عن المناخ

---

(1) Soulis, G. S, "The Legacy of Cyril and Methodius to the southern Slaves", in DOP, vol. 19, 1965, p. 36.
(2) Konstantin Mihailovic, Memoirs of A Janissary, trans. By, Benjamin Stolz, Ann Arbor, 1975, p. 99.
(3) Ibid, pp. 117 – 119; 131 – 132.
(4) Ibid, pp. 141 – 143.

السياسي والعسكري وحالة العداء بين أوروبا المسيحية والعثمانيين المسلمين، وهو ما تجلى عبر العديد من ردود الفعل الثقافية من الجانبين، كما لا يمكن أن ينفصل أيضا عن وطأة تجربة الأسر وإسقاطاتها.

كان من الطبيعي أن يتخذ الأسيران شيلتبرجر وميخائيلوفيتش موقفاً عدائياً من الإسلام دينا وعقيدة. غير أن معايشتهما لما يمكن تسميته "بالإسلام الشعبي" الموجود لدى الجنود الإنكشارية والمغول والمختلط بالطرق الصوفية والدراويش قد أنتج لديهما صورة افتقدت للموضوعية والعمق.

وهكذا انعكس المناخ الثقافي المحدود لهؤلاء الجنود على تصوراتهما عن الإسلام الحقيقي، وهو الأمر الذي استمر أيضا لدى شيلتبرجر في سنوات أسره الطويلة عند مغول القبيلة الذهبية بفضل المؤثرات الثقافية التي ربطت بين الأتراك والمغول. ويبدو أنهما قاما بعد ذلك بتدوين كافة ما استعما إليه من معلومات مشوشة اختلطت فيه الحقيقة بالأسطورة عن الإسلام وتعاليمه وشرائعه، ونبي المسلمين، لدرجة أن شيلتبرجر ذكر أن المسلمين يدينون بعدة ديانات، فعلى الرغم من أن معظمهم يؤمنون بمحمد، فإن منهم من يؤمن بعلي بن أبي طالب، والبعض الآخر بشيخ مسلم يدعى الملا Molwa(1)، والبعض الآخر يؤمن كما آمن الملوك الثلاثة قبل تعميدهم، بل إن بعضهم يعبدون النار!!.

وهكذا، فمن البداية تبدو عدة دلائل لا يمكن إغفالها، الأولى أنه قام بجمع كافة الأديان والعقائد التي سمع عنها كالإسلام والمسيحية والزرادشتية والشامانية والمانوية، وآمن بها السكان في الأقاليم التابعة للعثمانيين ومغول القبيلة الذهبية، واعتقد أنها جميعها أديان يؤمن المسلمون بها.

(1) "The Bondage and Travels", p. 65.

وفضلاً عن هذا، فعلى الرغم من وجود شيلتبرجر في الفضاء العثماني والمغولي السني فإنه يمكن بسهولة ملاحظة تأثره بالمؤثرات الشيعية، بفضل بقايا الشيعة الإسماعيلية الذين انتشروا في الأناضول وآسيا الوسطى.

ومن المعروف أن المؤثرات الشيعية قد تسللت منذ وقت مبكر إلى العثمانيين السنة الذين عاش وسطهم شيلتبرجر عبر تعاليم الطريقة البكتاشية التي أسسها الحاج محمد بكتاش النيسابوري «646هـ - 1284م»، وانتشرت على نطاق واسع بالأناضول[1]، واحتفى بها السلاطين العثمانيون لدرجة أن السلطان العثماني أورخان، عهد إلى البكتاشية بتعليم الشبان الأسرى من أهل الذمة الذين عرفوا باسم الدفشرمة Devshirme، الذين جرى تأهيلهم عسكريا بعد ذلك للالتحاق بفرقة الانكشارية Janissaries[2].

ومن الواضح هنا أن أسيرنا الألماني قام بإسقاط واقعه الثقافي، كمسيحي آمن بألوهية عيسى عليه السلام، فافترض أن المسلمين يعبدون محمداً أيضاً.

واختلطت الحقيقة بالأسطورة في العديد من تصورات شيلتبرجر تجاه الإسلام والمسلمين، من ذلك النبوءة المتعلقة بنبي المسلمين قبل أن يأتيه الوحي، فبعد أن ذكر أنه ولد في الجزيرة

---

(1) عن الحاج محمد بكتاش والطريقة البكتاشية في الأناضول، راجع: محمد فؤاد كوبريلي، المتصوفة الأولون في الأدب التركي، الجزء الأول، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، القاهرة، 2002م، ص 104 – 111، ج2، ص 30، 236 – 237، وانظر أيضا: Birge, J, The Bektashi Order of Dervishes, London, 1937

(2) الدفشرمة لقب أطلق على الشبان الصغار الذين انتزعهم العثمانيون من أهلهم من أهل الذمة قبل أن يقوموا بتدريبهم على أعمال الفروسية والحرب للالتحاق بفرق الانكشارية والخدمة في القصر. والانكشارية تعني بالتركية Yeni Chari أي الجيش الجديد وهم القوة الضاربة في الجيش العثماني منذ عهد السلطان مراد الأول (1362 – 1389م) وقاضي العسكر جاندارلي خليل حيث كان يجري في البداية أخذ أسير من بين كل خمسة أسرى للالتحاق بالانكشارية مقابل مرتبات من الدولة العثمانية. راجع:

Bayerle, G, Pashas, Begs and Effendis: A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire, Istanbul, 1997 pp. 38, 88.

سونيا محمد البنا، فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، القاهرة، 2005م، ص13 – 14.

العربية لأبوين فقيرين، وفي صباه طلب من بعض التجار مرافقتهم في إحدى القوافل التجارية إلى مصر من أجل رعاية الإبل والخيول[1].

وهو يشير هنا إلى حقيقة الدور الاقتصادي لتجار قريش قبيل الإسلام، في ظل ما نعرفه من خلال تردد القوافل التجارية بشكل خاص على الشام واليمن ومصر[2]. غير أنه أشار في ملاحظة تدعمها الوقائع التاريخية أيضا أنه حينما كان يتوقف النبي محمد عن سيره، كانت تظلله غمامة دائما[3].

على أية حال، تستمر رواية شيلتبرجر لتذكر وقوف القافلة بالقرب من إحدى القرى في مصر، حيث لاحظ راعى إحدى الكنائس الأرمينية؟! تلك السحابة التي تظلل محمدا، فتنبأ له بأنه النبي القادم[4].

وفي إشارة ذات دلالة حول واقع الأسر الذي عاشه المسيحي شيلتبرجر وسط العثمانيين المسلمين الذين حملوا راية الجهاد الإسلامي ضد القوى الأوربية المسيحية، فإنه يعود ليذكر بأن ذلك القس أبلغ نبي المسلمين المنتظر أنه سوف يوقع الكثير من الاضطهاد بالمسيحيين. وأن خلفاءه أيضا سوف يستمرون في ظلم واضطهاد المسيحيين. وناشده ألا يأمر باضطهاد

---

(1) "The Bondage and Travels", p. 65.

(2) تناولت العديد من المصادر التاريخية الإسلامية تجارة قريش مع الشام واليمن ومصر. راجع أيضا ما ذكره ثيوفانس عن سفر النبي محمد بتجارة السيدة خديجة إلى مصر وفلسطين قبل الإسلام. Chronographia, p. 464.

(3) Ibid, p. 66.

من الواضح أن حديث شيلتبرجر يتطابق تماما مع ما ورد في كتب السيرة النبوية. راجع على سبيل المثال: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، القسم الأول، الجزء الأول، القاهرة، د. ت، ص 181 – 183، 188 حيث يتناول نفس التفاصيل تماما حول دور الراهب بحيري الذي استضاف القافلة في بصرى على تخوم الشام ونبوءته عن نبوة الشاب محمد المرافق للقافلة. وعلى الرغم من تكرار ورود تلك الرواية في كتب السيرة فإن بعض المؤرخين قد رفضوها لضعف السند. عن ذلك راجع: الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، د. ت، ص 57.

(4) Loc. Cit.

شعبه الأرمني وأن يدعه في سلام. وهو ما استجاب إليه محمد، فلم يقم باضطهادهم، غير أنه فرض عليهم ضريبة شهرية بسيطة(1).

وبعيداً عن التشوش البادي في رواية شيلتبرجر، فإننا ندرك منها أنه كان يقصد الجزية التي فرضها الفاتحون المسلمون على سكان البلاد المفتوحة الذين فضلوا الاستمرار على دينهم(2).

ويمكننا أن نتساءل: لماذا اعتبر شيلتبرجر أن مسيحيي مصر قبل الإسلام كانوا من الأرمن؟. الواقع أننا لا نجد تفسيراً لظهور القس الأرمني وكنيسته أكثر من مرة في روايته وهو يشير إلى مصر. غير أنه يمكننا أن نفترض أنه نتيجة لمكوثه في إقليم أرمينيا، ومدن قارس ويريفان الأرمينية عندما كان في خدمة أبي بكر بن ميراه شاه، فقد سنحت له الفرصة كمسيحي لمقابلة العديد من المسيحيين الأرمن من سكان تلك المناطق. حيث ذكر أنه عاش فترة طويلة معهم، وأشار إلى أنهم قد عاملوه بود شديد.. وحسب كلماته «.... لقد عاملوني بلطف لأنني ألماني»(3).

ونتيجة لهذا فربما كان قد سمع هذه الرواية السابقة عن نبوءة محمد من المسيحيين الأرمن الذين ربما هدفوا إلى رفع شأن الكنيسة الأرمنية بزعم أنها كانت موجودة في مصر قبل الإسلام. وهو الزعم الذي لا تؤكده المصادر التاريخية المعاصرة.

(1) Loc. Cit.

(2) قال تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". سورة التوبة، 29 وعرف الفقه الإسلامي مصطلح "أهل الذمة" على أهل الكتاب من المسيحيين واليهود وكذلك على السامرة والصابئة بشرط موافقة المسيحيين واليهود في أصل عقيدتهم. والجزية هي مقابل ضريبة الدفاع عنهم في أو مقابل مادي لما تمتعوا به من حماية في دار الإسلام. راجع: الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي)، الأحكام السلطانية، القاهرة، د. ت، ص136 – 137، ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر)، أحكام أهل الذمة، الجزء الأول، نشره صبحي الصالح، دمشق، 1961م، ص 22 – 23.

(3) "The Bodage and Travels", p. 86.

واعتماداً على المناخ الثقافي المعادي للإسلام والمسلمين في أوربا، ونتيجة لوطأة الأسر الطويل الذي رافق شيلتبرجر، فقد أكل بشكل دائم في كتاباته بوصفه شاهد عيان على الانتصارات العثمانية على بيزنطة والقوى الأوربية، على أن مسألة اضطهاد المسيحيين وأسرهم، هي مسألة قديمة تقع في بنية الدين الإسلامي في نفسه(1).

ولعل أوضح مثال على اختلاط الأسطورة بالحقيقة عندما أشار إلى أن محمداً قد تزوج من زوجة ملك مصر بعد وفاة الأخير، ثم قام بدعوة أتباعه إلى الإيمان بالله خالق السموات والأرض بدلاً من عبادة الأوثان(2).

استمر شيلتبرجر في روايته ليذكر أن محمداً استعان بأربعة من أتباعه من المتفقهين في الدين الجديد(3) وعلى حين اعترف أن أبي بكر قد احتل مكانة أرفع من الباقين، فإنه عاد أشار إلى أن محمداً اختص علي بن أبي طالب بمنزلة خاصة "... فجعل له الرئاسة على جميع قومه"، كما عهد إليه بمحاربة مسيحيي الجزيرة العربية وإكراههم بالسيف على دخول الإسلام(4).

وبعيداً عما أصاب أفكار شيلتبرجر عند حديثه عن الخلفاء الراشدين دون ترتيب

---

(1) "The Bondage and Travels", p. 73, 78.

من ذلك إشارته إلى تهدم ألف كنيسة يوم ميلاد نبي المسلمين، واستمر شيلتبرجر في التركيز على هذه المسألة، فزعم أن كتاب المسلمين القرآن Alkoray يذكر أنه تم قتل تسعين ألفاً من المسيحيين في يوم واحد، ولهذا أسلمت الجزيرة العربية كلها. راجع p.67

(2) ولعل تلك الدعوة هي الوحيدة التي لم يدخلها التشوش لدى شيلتبرجر. فقد ذكر بموضوعية أن نبي المسلمين".. دعا إلى الإيمان بالله خالق السموات والأرض، وليس بالأصنام التي صنعها البشر، التي لا تسمع بآذانها ولا تبصر بأعينها، ولا تتكلم بألسنتها، وليس لها قدم ولا تستطيع السير، ولا تملك دفع الضرر عن نفسها". راجع: p .67

(3) Ibid, p. 77.

ذكر شيلتبرجر أن نبي المسلمين عهد بمسئولية التشريع الديني إلى عمر بن الخطاب، والتشريع الدنيوي إلى عثمان بن عفان، بينما تولى أبو بكر الصديق مسألة الحسبة والموازين والصناعات.

(4) Ibid, p. 67.

حقيقي. وكذا خلط أعمال الحسبة بالتشريعات الدينية والدنيوية، فإن إشارته إلى علي بن أبي طالب ودوره تحمل أيضا مؤثرات شيعية واضحة كانت موجودة وسط الفضاء العثماني السني.

غير أن المسألة الجديرة بالاهتمام هي ما قام بترديده عبر التركيز على فكرة القتال والاضطهاد الذي أوقعه المسلمون بالمسيحيين في بيزنطة والبلقان. فهو يشير إلى أن نبي المسلمين أمر بنفسه بضرورة اضطهاد المسيحيين، وهو الأمر الذي أصبح نبراساً اهتدى به كافة المسلمين(1). بل أضاف مدفوعا بالواقع التاريخي الذي يحاصره في رحلة الأسر، أن المسلم الذي يقوم بقتل المسيحيين بهذه الطريقة يطلق عليه لقب غازي Ghazi"(2)... ويوجد الكثير منهم في بلاد الأتراك، ودائماً ما يعادون المسيحيين لأن هذه شريعتهم".

غير أنه يعود ليذكر في اعتساف أن الجندي العثماني الذي لم يستطع أن يقوم بصرع جندي مسيحي في ميدان القتال، عليه أن يقوم بشراء أحد العبيد المسيحيين وقتله ليستحق لقب "الغازي"(3).

وهكذا قام شيلتبرجر بردة فعل ثقافية لمهاجمة المسلمين الذين نجحوا في أسره بعد أن أسبغ

---

(1) "The Bondage and Travels", p. 74.

وحسب كلماته "عقد اتباع محمد تحالفاً لقتل المسيحيين وعدم أسرهم، لدرجة أنه إذا التقى الطرفان في معركة، ولم يفلح المسلم في النيل من المسيحي، فإنه يتوجب عليه أن يشتري مسيحياً آخر من بين الأسرى، ليقوم بقتله".

(2) راجع: P .73

الغازي Ghazi وجمعها الغزاة Ghuzat في الأصل كلمة عربية دخلت إلى التركية. وأطلقت في تلك الفترة على الجندي الذي ضم أرضا بالفتح للدولة العثمانية. كما أطلقت بشكل خاص على القادة والسلاطين المجاهدين. انظر: شمس الدين سامي، قاموس تركي، استانبول، 1917م، ص 960. وكان الغزاة العثمانيون يستمدون مبادئهم من قيم الفتوة Futuvvet. والغازي هو التابع لأوامر الله في الجهاد، وهو سيف الله على أعدائه وحامي المسلمين. وإذا ما استشهد في قتال غير المسلمين، فإنه سوف يصبح خالدا في السموات، عن ذلك. انظر:

Gustav Bayerle, Pashas, Begs and Efendis; A Historical Dictionary of Titles and Terms in The Ottoman Empire, Istanbut, 1997, p. 68.

(3) راجع: P .73

وحشية كبرى على بنية الدين الإسلامي. كما أنه في نفس الوقت انتقص من قدر العثمانيين الذين قاموا بأسره، وحط من شأنهم عبر امتهانه للقب الغازي الذي أطلق على السلاطين والجنود العثمانيين، ليجعل الحصول عليه يسيرا.

ومن نفس المناخ الثقافي المعادي للإسلام وللعثمانيين، قام الأسير الصربي قسطنطين ميخائيلوفيتش بالتركيز على مسألة اضطهاد المسلمين للمسيحيين بشكل وحشي، فقد عزا إلى علي بن أبي طالب أيضاً أمره بضرورة تعذيب المسيحيين أينما كانوا، سواء في ديار الإسلام أم خارجها(1). كما تكررت الإشارة إلى سيفه الشهير "ذو الفقار" الذي وصفه بأنه كان حادا وباترا ضد المسيحيين.

ومرة أخرى نجد أن شخصية علي بن أبي طالب قد احتلت مكانة متميزة، اختلطت فيها الحقيقة بغيرها لدى حديث ميخائيلوفيتش عن الإسلام، فقد أشار إلى تبجيل المسلمين له ورفعهم من قدره، لدرجة أنهم جعلوا منه نبيا مثل محمد الذي اصطفاه، وقام بتزويجه من فاطمة(2).

ويمكن القول بأن هناك تفسيرا موضوعيا لرؤية ميخائيلوفيتش المشوشة لرابع الخلفاء الراشدين، يتعلق بكونه قضى سنوات أسره الثمانية «1455 – 1463م» وسط جنود الإنكشارية العثمانيين، الذين كانوا يبجلون علياً بشدة بفضل علاقاتهم القوية مع طائفة البكتاشية الدراويش، وكان تبجيل علي أحد أهم مظاهر الممارسات الشائعة لهذه الطائفة ذات الجذور الشيعية في القرن الخامس عشر الميلادي.

حدث هذا قبل أن تتدهور صورة علي فيما بعد، إبان المواجهات العسكرية بين

(1) "Memoirs of A Janissary", p. 9.

وحسب كلماته "ابحثوا عنهم في بلادهم، بدلا من أن تنتظروهم في بلادكم".

(2) Ibid, p. 7 غير أنه أخطأ تحدث عندما تحدث عن فاطمة بوصفها أختا لمحمد.

العثمانيين السنة مع الصفويين الشيعة في عصر السلطان سليم الأول منذ بدايات القرن السادس عشر الميلادي[1].

وانطلاقاً من مناخ الهزيمة العسكرية التي حاقت بالقوى الأوروبية أمام العثمانيين بعيد موقعة نيقوبوليس 1396م، فإن شيلتبرجر استخدم أيضا وسيلة دفاع ثقافية عند تناوله لمسألة الانتصارات العثمانية على القوى الأوروبية المسيحية، فذكر أن المسلمين يعتقدون أن فتوحاتهم في أراضي المسيحيين إنما هي ضرورة حتمية نتيجة لظلم المسيحيين وضلالهم، وخروجهم على أصول دينهم، فاستحقوا في النهاية أن يحيق بهم غضب الرب[2].

وهكذا بدلا من الاعتراف بميزان القوى العسكري الذي كان يميل لصالح العثمانيين المسلمين، نجد أنه فضل أن يعزو انتصاراتهم إلى ضلال المسيحيين وابتعادهم عن الرب.

هنا تتفق رؤية شيلتبرجر مع رؤى المؤرخين الكنسيين والعلمانيين طوال تاريخ أوربا في العصور الوسطى، وخاصة الذين تناولوا منهم هزائم الجانب البيزنطي أمام المسلمين العثمانيين، والكوارث التي ألمت بهم فعزوا ذلك انحرافاتهم وارتكابهم للخطايا والآثام، وهو ما جلب غضب الرب عليهم، وتسبب في هزيمتهم أمام أعداء المسيحية[3].

---

(1) حقق السلطان العثماني سليم الأول (1512 – 1520م) انتصارا كبيرا على الشاه إسماعيل الصفوي في موقعة جالديران Caldiran عام 925هـ - 1519م وعلى الرغم من أن العديد من الجنود العثمانيين كانوا على المذهب الشيعي وأظهروا تراخيا أثناء المعركة فإن العثمانيين تمكنوا من النصر في النهاية. راجع: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، الجزء الثالث، استانبول 1308هـ، ص 1865 – 1866.

(2) “The Bondage and Travels”, p. 76 – 77.

(3) انظر على سبيل المثال ماكتبه ميخائيل دوكاس والقنصل الجنوي لمستعمرة غلطة لوميلينو تعليقا على نجاح العثمانيين في اقتحام مدينة القسطنطينية 1453م. وتفسيرهما النهائي لهزيمة البيزنطيين:

Doukas, op. cit. 239; Angelo Giovanni Lomelleno, “ex-Podesta of Pera, to his brother”, in, The Siege of the Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts, ed. By, J. R. Melville Jones, Amesterdam, 1972, p. 132.

؛'Mihailovic, op. cit, p.41

وفي إسقاط منه على ما يتمناه من انتصار نهائي للمسيحية ضد الإسلام، فإن شيلتبرجر لم ينس أن يذكر أن القس الأرمني صاحب النبوءة بمحمد، قد أخبر الأخير أن عقيدته لن تستمر سوى ألف عام ثم تنحسر[1].

وهكذا فإن شيلتبرجر الذي كان يمر بوطأة الأسر الصعبة لدى المسلمين العثمانيين والمغول منذ نهاية القرن الرابع عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، كان يريد أن يخبر قراءه المسيحيين عن تمنياته بأن فترة الصعود والانتصارات الإسلامية قد قاربت نهايتها.

واستطرادا لنفس الفكرة أشار أيضا إلى أن المسلمين سبق أن قرأوا في نبوءاتهم أن المسيحيين سوف يقومون بطردهم من بلادهم واستردادها ثانية. غير أنهم لا يتوقعون حدوث ذلك في وقت قريب، ماداموا على التزامهم وطاعتهم لربهم، في الوقت الذي ظل فيه المسيحيون على انحرافهم وابتعادهم عن الرب[2].

ويبدو واضحا هنا أن الأسير شيلتبرجر قد اختلق نوعاً من النبوءات قبل أن يقوم بتوظيفها من أجل حث المسيحيين على التخلص من ذنوبهم وخطاياهم، واستنهاض عزيمتهم لتحقيق النصر على المسلمين.

وهكذا يمكننا أن نلحظ بسهولة أن رؤية الأسيرين شيلتبرجر وميخائيلوفيتش كانت منحازة ثقافياً ضد الرسول والمسلمين وضد مبادئ الإسلام وتوجهاته نحو المسيحيين. غير أن ما يلفت النظر هو أنهما عرضا في أمانة وحياد موقف الإسلام من الدين المسيحي نفسه. فعلى حيث ذكر شيلتبرجر أن المسلمين يؤمنون بميلاد المسيح من السيدة العذراء، وأنه حدثها المهد. فقد أشار ميخائيلوفيتش إلى أن المسلمين يعتقدون في نفس الوقت أن السيد

(1) “The Bondage and Travels”, p. 66.
(2) Ibid, p. 77.

المسيح هو روح من عند الله[1].

كما اتفق الأسيران أيضاً في رؤية الإسلام لمسألة صلب المسيح. وعلى حين يذكر شيلتبرجر أن المسلمين لا يعتقدون أنه قد صلب، بل تم صلب شبيه له[2]، يزيد ميخائيلوفيتش أن المسلمين يذكرون أن اليهود حاولوا قتل السيد المسيح، غير أن الله وضع في طريقهم شخصاً شبيهاً به، فقاموا بالقبض عليه وتعذيبه قبل صلبه[3].

كما أشار أيضا إلى أن المسلمين يذكرون أن السيد المسيح قد رفع إلى السماء ورحبت به الملائكة. وأنه سوف يهبط الأرض في آخر الزمان، ليدين اليهود، كما أنه سوف يقوم بإدانة المسيحيين أيضا لأنهم جعلوا منه إلها[4]. ولم ينس أيضاً أن يذكر أن المسلمين يعتبرون أنفسهم في مرتبة أعلى من اليهود والمسيحيين، بوصفهم المصطفين من أجل صحيح الإيمان. وأن المسيحيين قد أخطأوا كذلك لاعتقادهم في الثالثوث المقدس.

ونتيجة لطول فترة الأسر لدى المسلمين فقد شهد كل من شيلتبرجر وميخائيلوفيتش حالات تحول عديدة من المسيحية إلى الإسلام، حيث ذكر الأخير أن الذين أسلموا بشكل سنوي كان عددهم كبيراً، وخص بالذكر منهم العديد من البحارة الإيطاليين. كما شهد بنفسه الة تحول نادرة إلى الإسلام كان صاحبها أحد رهبان جماعة القديس برنار St. Bernard[5]، في منطقة غلطة Galata بالعاصمة العثمانية الجديدة.

واللافت للانتباه أن أسيرينا لم يهتما بذكر أسباب التحول من المسيحية للإسلام. وعما

(1) "Memoires of A Janissaries", P. 17.
(2) "The Bondage and Travels", P. 76.
وحسب كلماته "..كيف يصلب المسيح خير أصفياء الله والذي لم يرتكب ذنبا قط. إن صلبه يدل على افتقار حكم الله للعدل، إذ كيف يصلب الرب برئيا".
(3) "Memoires of A Janissaries", P. 17.
(4) Ibid, P. 19.
(5) Ibid, pp. 191, 193.

إذا كان ذلك نتيجة لأسباب دينية أم اقتصادية أم اجتماعية. ذلك لأن الدولة العثمانية لم تكن حتى ذلك الوقت تنتهج سياسة صريحة تشجع التحول إلى الإسلام، لأن ذلك كان يعني بالنسبة لها التوقف عن دفعة ضريبة الرأس التي كانت عبارة عن 40 أسبرة Aspre(1)، أي قطعة ذهبية واحدة من الفلورين florentin للفرد الواحد. كذلك كان يعني ذلك أيضاً أن يتوقف الفلاح المسيحي عن دفع مبلغ الإيسبنجي أو جومانيكا، وهي ضريبة الرأس المفروضة على المسيحيين، والتي كنت تدفع قبل ذلك إلى الزعماء الإقطاعيين في صربيا – بلاد قسطنطين ميخائيلوفيتش – قبل المرحلة العثمانية، واستمرت في العهد العثماني، وكانت تساوي قطعتين ذهبيتين بشكل عام وكانت متضمنة في عائدات التيمار Timar(2).

والحقيقة أن الدولة العثمانية لم تشجع مسألة تحول رعاياها من السكان المسيحيين إلى الإسلام طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وذلك لأسباب اقتصادية بحتة. فقد كان ذلك يعني أن يتوقف كل مزارع مسيحي خاضع لها عن دفع مبلغ 25 Aspre المتوجبة عليه، فضلا عن ضريبة الرأس. وكان إجمالي الضريبتين يعادل قطعتين ذهبيتين تقريبا (7.14 جم) تقريبا. وعلى سبيل المثال فلو كان سكان الأناضول من المسيحيين قد تحولوا

---

(1) الأسبرة هي المعادل الأوربي للأقجة Akga، وهي عملة عثمانية فضية استمرت حتى القرن الثامن عشر الميلادي. انظر:

Bayerle, G, op. cit. pp. 4, 11.

(2) راجع: خليل أنالجيك، دونالد كوارت، (تحرير)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة عبد اللطيف الحارس، بيروت، 2007م، ص599، بهاء الدين يدي يلدز، المجتمع العثماني، بحث في كتاب: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تحرير أكمل الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي، استانبول، 1999م، ص645. أما التيمار Timar فهي أرض كانت تابعة لأعداء الدولة العثمانية تم الاستيلاء عليها وضمها لأراضي الولايات العثمانية، وجرى منحها للفرسان الذين أظهروا بسالة في الحروب لزراعتها وتوفير احتياجاتهم مقابل تقديم خدمات عسكرية نظامية. وكان دخل التيمار أقل من 20 ألف أقجة. انظر:

Medhat Sertoglu, Osmanli Tarih Lugati, Istanbul, 1986, 338 – 339.

إلى الإسلام في العام 1488م، لخسرت الخزانة العثمانية حينها عشرات الكيلوجرامات من الذهب[1].

لهذا كله كان السلاطين العثمانيون قليلي الاهتمام بإدخال الرعايا المسيحيين في الإسلام، لدرجة أنهم واصلوا في أحيان عديدة جباية ضريبة الإيسبنجي من المزارعين المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام حديثا[2].

وعلى الرغم من سابق إصدار كنيسة القسطنطينية تحذيراً إلى أهالي مدينة نيقية عام 1340م بعدم الدخول في الإسلام بعدما لاحظت حالات تحول عديدة عن المسيحية، فإن ذلك لا يعد قاعدة يقاس عليها للأسباب السابق ذكرها. كما أن المصادر التاريخية العثمانية كابن عاشق باشا[3]، تحدثت أحياناً عن دخول قرى بأكملها في الإسلام، وأحياناً أخرى عن بقاء المسيحيين على دينهم في الأماكن التي فتحها العثمانيون.

ويرجع ذلك إلى انتشار الحركات الصوفية على نطاق واسع في منطقة الأناضول دون سيطرة مركزية عليها من أية مؤسسة إسلامية، وهو ما جعل الدراويش يساهمون في إيجاد ما يمكن تسميته "دينا شعبيا" بعد اختلاطه بالمؤثرات الوثنية السابقة والمنحدرة من السامانية والزرادشتية والبوذية، وغيرها من العقائد التي اجتاحت منطقة الأناضول وآسيا الوسطى[4].

والحقيقة أن المد الفكري للحركات الصوفية السابقة على سيطرة العثمانيين في مناطق آسيا الصغرى والأناضول قد مهد لعمليات تحول السكان غير المسلمين إلى الإسلام قبل

---

(1) بيلديسينو، ن، تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)، بحث في كتاب: تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، 1993م، ص198.

(2) نفسه، ص 199.

(3) Asik Passoglu, op. cit, p.

(4) وجدت الشامانية منذ قبل الإسلام عند الأتراك والمغول قبل أن تختلط بعض مظاهرها بطقوس ومظاهر الدراويش الصوفية، مثل روح الميت التي تتحول إلى طائر، وغير ذلك من المعتقدات. عن ذلك راجع:

Koprulu, F, Influence de Chamanisme Turco- Mongol, Istanbul, 1929.

ذلك بوقت طويل. وعلى سبيل المثال نجح الصوفي الشهير جلال الدين الرومي (1207 – 1273م) وأتباعه في تحول الآلاف منهم إلى الإسلام. كما دخل في مناظرات مع القساوسة والرهبان المسيحيين وكذا الربيين Rabbies اليهود. واحتفظ بشكل خاص بعلاقات طيبة مع رهبان ومقدم دير أفلاطون Plato البيزنطي في إقليم قونية[1].

ومما ساعد على استمرارية عمليات التحول للإسلام عند سكان الأناضول وآسيا الصغرى هو إحكام قبضة العثمانيين على الكنيسة في الأراضي المفتوحة حديثا، مما أضعف دورها في رعاية السكان المسيحيين الذين فكر بعضهم في اعتناق الإسلام لعدة أسباب أهمها الفكاك من دفع الجزية، أو محاولة الحصول على امتيازات عبر الالتحاق بالعمل في الجهاز الإداري والعسكري، من أجل النفاذ إلى الطبقة العليا في المجتمع العثماني.

على أن فرق الدراويش الصوفية كان لها الفضل الأكبر في عمليات التحول الديني باتجاه الإسلام في الأناضول والبلقان في الفترة العثمانية. فقد أولى البكتاشية اهتماما واسعا بهذا الأمر. وأرسل حاجي بكتاش العديد من الدعاة على رأسهم الشيخ صاري صالتيق Sari Saltik إلى الأراضي التابعة للبيزنطيين وإلى دوبرجة Dobruja والبلقان لتحويل السكان المسيحيين إلى الإسلام[2].

ويبدو أن هناك عاملا هاما ساهم في تدفق الآلاف من سكان الأناضول والبلقان نحو

(1) انظر:

Veryonis, S, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the eleventh through the Fifteenth Century, London, 1971, pp. 386 – 388.

(2) انظر: شمس الدين سامي، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 2916؛ محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص112؛ Vryonis, op. cit, p. 378.

Uyar, M, Sari Saltik Populer Islam'in Balkanlardaki Destani Oncusu, Ankara Universitesi Dil ve Tarih – Geografya Fakultesi, Tarih bolumu Tarih Arastermalare Dergisi, Cilt: 21, Sayi: 33, Ankara, 2003, s. 189.

الإسلام عبر الطريقة البكتاشية التي كانت تمثل "الإسلام الشعبي" في تلك المناطق والتي نجحت في استمالتهم عبر مظاهرها وطقوسها التي تشابهت أحيانا مع بعض مظاهر المسيحية دون أن تكون لها علاقة بأصولها.

حدث ذلك عبر عمليات الاغتسال بالمياه والوضوء المصاحبة للجمل التي تقال قبل طقس "عين الجم" Ayni Cem[1] لدى أفراد الطريقة البكتاشية، وكذلك استخدامهم لماء الورد المشابه لزيت الميرون المقدس المستخدم أيضا في عمليات التعميد في المسيحية.

بل أنه جرى العرف في بعض الأحيان بالأناضول منذ القرن الحادي عشر الميلادي على تعميد أطفال المسلمين بواسطة الأساقفة التابعين للكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية. لأن آباءهم كانوا يعتقدون بأن أطفالهم سوف يصيبهم مس من الشيطان، كما أن رائحتهم سوف تصبح كريهة كرائحة الكلاب إذا لم يتلقوا التعميد بشكله المسيحي[2].

كما أن استعمال البكتاشية للنبيذ والخبز في طقس عين الجم المصاحب لذكرى استشهاد الحسين، يوازي طقس القربان المقدس Euchrist كرمز على موت المسيح. بالإضافة إلى اعترافهم بالأئمة الاثني عشرة بعد اختلاط أفكارهم بالمؤثرات الشيعية، وهو ما يقابل عدد حواريي السيد المسيح. فضلا عن أسطورة ميلاد بالم سلطان Balim Sultan من عذراء. وكذلك التشابه الكبير في الإيمان بالتثليث الذي يتحول عند البكتاشية إلى: الله – محمد –

(1) عين الجم هو ثاني أكبر طقوس الطائفة البكتاشية. ويتم في ليالي الشتاء الطويلة، ويتميز بوجود المعازف والأشعار والخمر. ويفسر الجم على أنه اجتماع لسعة القلب ونضج الروح. ويقبل الحضور فرادى، ثم يحني الواحد منهم رقبته ليقبل يد الباب، ويقف على قدمه حتى يأذن له بالجلوس. انظر:
Ismet Zeki Eyuboglu, Butun Yonleriyle Bektesilik, Istanbul, 1980, S. 193 – 197.

(2) Vryonis, S, "Relegious Changes and Patterns in the Balkans, 14th – 16th centuries", in Brinbaum, H, and Bryonis, S (eds.) Aspects of the Balkans. Continiuity and change, London, 1972, pp. 173 – 174.

علي أو محمد – علي – حاجي بكتاش[1].

وهكذا لم يجد مسيحيو البلقان فارقا بين "مسيحيتهم الشعبية" التي استمروا خلالها في الاحتفاء بعاداتهم الوثنية القديمة كتلك المتعلقة بالموت وإجراءات الدفن.

فضلا عن استخدام النسوة النائحات، وإعلان العزاء لفترة عام كامل مع وضع أواني القمح والزبيب والسكر مع الميت في قبره[2].

ومن الواضح أن المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام في البلقان لم يجدوا عائقا كبيرا في ذلك مادامت معتقداتهم السابقة تنتقل معهم إلى الدين الجديد. وهكذا استمروا في عبادة القديسين المسيحيين والاحتفاء بأعيادهم وفي نفس الوقت في عملية تبجيل الدراويش الصوفية المسلمين[3].

وهكذا ساهم هذا التوفيق بين المعتقدات في عمليات التحول بسهولة من المسيحية للإسلام. فلم يجد السكان المتحولون حسب ثقافتهم الشعبية البسيطة فارق جوهريا بين ذلك "الإسلام الشعبي" و"المسيحية الشعبية" التي وجدوا في وسطها. هذا فضلا عما أظهره أولئك الصوفية والدراويش من كرامات أثرت بشكل كبير على جميع السكان في الأناضول والبلقان وغيرها من المناطق.

ويمكن القول بأن حالة التدين الشعبي التي تلبست جميع السكان القاطنين في الأناضول

(1) Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism, pp 371 – 372.

(2) Vryonis, "Religious Changes", pp. 156.

ويذكر الباحث أيضا أن رجال الكنيسة في البلقان عانوا كثيرا عبر معركة خاسرة مع تلك التقاليد الوثنية التي تجذرت في المجتمعات الريفية بالبلقان.

(3) عن ذلك انظر:

Babinger, F, "Der Islam in Sudosteuropa" in, Volker und Kulturen Sudosteuropas, Schriften der Sudosteuropa Gesellschaft, Munich, 1959, pp. 206 – 207.

وغرب آسيا الصغرى بصرف النظر عن دياناتهم قد تجلت في الحركة الدينية التي تزعمها الشيخ بدر الدين بن قاضي مدينة سماونة، والمسيحي بوركلوجة مصطفى واليهودي طورلاق كمال في العام 1416م، والتي ساوت بين الأديان الثلاثة، واعتنق أفرادها مبدأ الشيوعية في الملكية، ونجحت في جذب العديد من السكان الفقراء والمهمشين على اختلاف عقائدهم(1).

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد انتشرت الحركات الصوفية المختلفة منذ القرن الثاني عشر الميلادي في أراضي مغول القفجاق – حيث الأسير شيلتبرجر – وذلك بفضل خلفاء الصوفي الشهير الشيخ أحمد يسوي، أمثال آدي جارميش والشيخ بيراش الصوفي ومريده أرش محمد طوق محمد محمد أوغلو الذي لقب بشيخ بابا(2).

على أن التحول الديني الحقيقي لسكان مغول القبيلة الذهبية نحو الإسلام قد حدث في عهد بركة بن جوجي (1256 – 1267م)، الذي كان قد اعتنق الإسلام قبل توليه العرش المغولي بفضل الشيوخ الصوفية في مدن خجند وبخارى(3).

ولدينا أيضا دليل من المصادر اللاتينية على اعتناق بركة للإسلام قبل توليه الحكم، فحسب رواية وليم الروبروكي William of Rubruk الذي زار معسكر بركة عام 1253م، فقد أشار إلى إسلامه كما لاحظ بعض المظاهر الإسلامية مثل عدم سماح بركة

(1) Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism, p. 358.

وعن حركة الشيخ بدر الدين ورفاقه ونتائجها. راجع المصادر التالية:

AsikPasaoglu, op. cit, pp. 89 – 91.

Doukas, op. cit, pp. 120 – 121.

(2) انظر: محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص 98 – 99.

(3) انظر: محمد سهيل طقوش، مغول القبيلة الذهبية والهند، بيروت، 2007م، ص31. ويرى بارتولد أن بركة اعتنق الإسلام قبل توليه العرش متأثرا بالشيخ سيف الدين البافرزي ت 1281م. راجع: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، 1996م، ص 195.

بتناول لحم الخنزير في معسكره[1].

واستمر مغول القبيلة الذهبية في التحول من عقائدهم القديمة إلى الإسلام، فاعتنق السلطان محمد أوزبك بن طغرل شاه (1313 – 1341م) الإسلام أيضا قبل توليه العرش بفضل بعض الفقهاء المسلمين الفرس[2]. وكان مجلسه لا ينعقد إلا بحضور القاضي والفقهاء المسلمين. ووصل اعتناق الإسلام ذروته لدى سكان القبيلة الذهبية في المدن والريف والصحراء، وتوغل حتى جنوبي روسيا وأسلم العديد من سكان سيبريا[3].

وكما هو الحال في الأناضول والبلقان، فعلى الرغم من تحول سكان القبيلة الذهبية للإسلام، ظلت العقائد القديمة لهم تلقي بظلالها على شعائر الدين الجديد. فقد استمرت الشامانية ومظاهرها مترسبة في المجتمع المغولي[4].

على أية حال، فمن الواضح أنه قد حدثت عمليات تحول واسعة من قبل سكان الأناضول وآسيا الصغرى والبلقان فضلا عن أراضي مغول القبيلة الذهبية إلى الإسلام.

غير أن الأسير ميخائيلوفيتش يبدي ملاحظة لها دلالتها الهامة بخصوص أولئك المسيحيين الذين كان يعرفهم قبل أن يتحولوا إلى الإسلام، فيذكر أن تصرفاتهم قد اتسمت بالسوء أكثر من أولئك الذين ولدوا مسلمين[5]. ويقصد بذلك أنهم قد أصبحوا أكثر قسوة تجاه الرعايا

(1) Dawson, Ch, Mission to Asia, London, 1980, p. 124.

(2) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص67. على حين يرى بارتولد أنه اعتنق الإسلام بعد توليه الحكم بتسع سنوات عام 1321م، بفضل الشيخ سيد آتا التركستاني المدفون في طشقند. انظر المرجع السابق، ص 197.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 69. ويذكر شبولر أن أوزبك قاد القبيلة الذهبية نحو الإسلام عبر اتباعه لمبادئ الشريعة الإسلامية بدلا من قوانين الياسا المغولية. انظر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد عيسى، دمشق، 1982م، ص95.

(4) عن ذلك انظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص44؛ شبولر، المرجع السابق، ص95؛ بارتولد، المرجع السابق، ص 196 الذي تحدث عن عادات قديمة مثل عدم استخدام سكان مغول القبيلة الذهبية لمياه النهر في الغسيل أو الاغتسال.

(5) Memoires of the Janissary, p. 191.

المسيحيين والسكان المسلمين على حد سواء.

وعلى الرغم من أن الأسير الصربي قد يبدو هنا حانقاً على أبناء ديانته الذين تحولوا إلى الإسلام، وربما كان يتحدث أيضا عن تجربة شخصية، فإن هناك رأيا مشابها لهذا ظهر في منطقة أخرى من العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الميلادي أيضا. فإذا أمعنا النظر في أحوال المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام، ثم شغلوا مناصب عليا في النظام الإداري المملوكي في مصر، سوف نجد أن بعضهم قد عرف أحيانا بالقسوة تجاه الرعية.

وربما يمكن تفسير ذلك إلى أنهم كانوا يتصرفون بحذر حينما كانوا على المسيحية، وبعد إشهار إسلامهم وعملهم الجديد في الجهاز الإداري للسلطة الحاكمة، لم يعودوا في خشية منها. وربما كان ذلك أيضا تزلفا للحكام المماليك في محاولة لإثبات إخلاصهم. لدرجة أن المقريزي وصف أحدهم بقوله "... ومن الغريب أن ذلك الرجل كان حسن السيرة في نصرانيته ثم أصبح عذابا على الناس بعد إعلانه الإسلام"[(1)].

وانفرد شيلتبرجر عن ميخائيلوفيتش بذكر المراسم التي تمت عند تحول الرجل المسيحي إلى الإسلام، فذكر أن عليه أن يرفع إصبعه عالياً ويردد "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، قبل أن يقوم بإنكار العقيدة المسيحية. ثم يقوم المسلمون بإلباسه ثوباً جديداً وعمامة بيضاء بدلاً من عمامة المسيحيين الزرقاء أو اليهود الصفراء[(2)].

---

(1) السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، القسم الثاني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1973م، ص820، وذلك عندما تحدث عن الوزير أبو الفرج الأسلمي (ت796هـ).

(2) The Bondage and Travels, p. 74.

يتفق حديث شيلتبرجر مع ما ورد من الشروط الستة المستحبة لعقد الذمة حسبما ورد في العهدة العمرية من "لبس الغيار المخالف لملابس المسلمين". راجع: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 137 – 138. ومن الواضح أن تلك الشروط من وضع الفقهاء المسلمين غالوا في مرحلة متأخرة من فرض القيود على غير المسلمين. فمن الثابت أنهم لم يلتزموا باختلاف الملابس عن المسلين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. عن ذلك راجع: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج1، ص236.

ثم يركبونه فرساً لتبدأ مراسم الاحتفال به، ويزفه الشيوخ والعوام مصحوباً بالطبل والصنج والمزامير في شوارع المدينة وهم يصيحون فرحا، قبل أن يتم ختانه. وإن كان فقير الحال قاموا بجمع الهبات والتبرعات له حتى يبدأ حياته الجديدة(1).

والحقيقة فإن ما ذكره شيلتبرجر يقترب كثيراً مع ما ورد في التراث الفقهي لدى المسلمين في تلك الفترة. فقد ظهر ذلك في ثنايا كتابات الفقيه المغربي ابن الحاج التي تناولت مراسم إشهار إسلام أحد أفراد أهل الذمة في مصر في العصر المملوكي. فأشار أنه كان يتوجب عليه التوجه إلى خطيب أحد المساجد ليشهر إسلامه على يديه. قبل أن يعود في صلاة الجمعة التالية ليقف وسط المسجد ويكرر إعلان إسلامه على الملأ، وعندها يتوقف الخطيب عن خطبته لتحدث ضجة فرح عارم(2).

(1) Loc. Cit.

كما أشار شيلتبرجر أيضا إلى مراسم تحول النساء أيضا من المسيحية إلى الإسلام، حيث تتوجه المرأة إلى قاضي القضاة، وتقوم بترديد الكلمات السابقة بالإضافة إلى إنكارها للعقيدة المسيحية ثلاث مرات قبل أن تسلمه حزامها ليشقه نصفين ويجعله على شكل صليب.

(2) (أبو عبد الله محمد بن العبدري)، المدخل إلى الشرع الشريف، الجزء الثاني، القاهرة، د. ت، ص 271 "...يتلفظ بالإسلام على رءوس الناس، ويقطع الخطيب الخطبة بسببه، وتقع ضجة في المسجد.. ويتعين على الخطيب أن يأمره بالخروج من المسجد، ويأمر من يخرج معه من المسلمين حتى يغتسل إن كان جنبا"؛ وانظر أيضا قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر المماليك، القاهرة، 2003م، ص 162 – 163.

وهناك صيغة كاملة حفظها التراث الفقهي الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري يذكرها المتحول من أهل الذمة إلى الإسلام هي: "يعلن المسيحي فلان أنه يرفض الدين المسيحي عن اعتقاد، وأنه يعتنق ديانة الإسلام عن اعتقاد، لأنه يعلم أن الله ليس له نظير، وأنه نسخ بالقرآن ما أنزله قبله من الكتب والشرائع والأديان. ويشهد المسيحي المذكور: أن لا إله إلا الله، وأن الله ليس له شريك، وأن محمدا عبده، وخاتم رسهل وأنبياءه، وأن المسيح بن مريم هو عبده ورسوله، وأن الله أرسل أحد ملائكته إلى مريم ليخبرها بأنها ستلد عيسى، وأنها حملت من روحه تعالى. وبهذا خضع المسيحي المذكور لجميع أوامر الإسلام الإلهية المتعلقة بالوضوء والصلاة والزكاة والصيام وغيرها. ويعلم ما يترتب على تركها من العقاب. كما يعلم المحرمات الواجب الامتناع عنها. وعليه، فإنه مال إلى الإسلام حبا فيه. ويحمد الله على هذه النعمة التي أنعم بها عليه، فألهمه اعتناق هذا الدين. هذا هو ما قاله المذكور، قولا مجردا عن الخوف، وخاليا عن كل تأثير لأنه يجب ألا يقهر المرء في الدين. عن ذلك انظر: ابن سلمون (ابن سلمون الكناني الغرناطي 1289 – 1365م)،

على أن شيلتبرجر لم يذكر المكان الذي شهد فيه عمليات التحول من المسيحية إلى الإسلام سواء أكان ذلك إبان سنوات أسره لدى العثمانيين أم لدى تيمورلنك وأبنائه أم لدى أمراء القبيلة الذهبية. كما أننا نعرف أنه سبق له أن زار مصر على عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي عام 1425م، ومكث بها فترة في معية وفد من قبل الأمير المغولي جكرة أوغلان. غير أن صيغة مرسوم تحول الذمي إلى الإسلام لم تتغير تقريبا من منطقة إلى أخرى بفضل العناصر الرئيسية المحددة لها.

ويمكننا أن نلحظ فارق بين حديث كل من شيلتبرجر وميخائيلوفتش عن المساجد ودورها لصالح الأخير لأن فترة أسره التي استمرت من العام 1455م حتى 1463م قد جرت بعد استقرار مؤسسات الدولة العثمانية ولهذا فقد تميز عن شيلتبرجر بالإشارة إلى أن مؤسسة الأوقاف العثمانية كانت تضطلع ببناء المساجد عبر مساهمات السلطان والوزراء والباشوات والتجار الميسورين، كما أشار إلى دور كل من المؤذن والخطيب والإمام داخل المسجد.

كان من الطبيعي نتيجة لوجود الأسيرين المسيحيين وسط العثمانيين والمغول المسلمين بشكل مستمر، أن يكونا على معرفة تامة بصلواتهم اليومية، وأوقاتها وشروطها وأماكن قيامها. وهكذا أشارا إلى الصلوات الخمس المعروفة لدى المسلمين[1].

العقد المنظم للحكام فيما يجري على أيديهم من العقود والأحكام، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، 186003/1 الرقم العام 5224، رقم الصنف ع. ك/2166، ص256.

(1) Shiltberger, op. cit. p. 67 – 68; Mihalovic, op. cit. p. 11.

على الرغم من خطأ الأول عند وصفه لصلاة العشاء بأنها صلاة يؤديها المسلمون لمحمد من أجل الشفاعة. على حين أشار الثاني إلى سبع صلوات على المسلمين بعد إضافة صلاة الضحى وصلاة التهجد. ونتيجة لمكوثهما في الأسر لسنوات طويلة فقد رصدا أيضا كيفية معاقبة السلطات العثمانية والمغولية لمن يتخلفون عن أداء الصلوات مهما كانت طبقتهم الاجتماعية، فكان يجري تكبيلهم على سلالم خشبية ليطاف بهم في شوارع المدينة، قبل أن يتم توثيقهم أمام المسجد لحين انتهاء الصلاة حيث يجلدون خمس وعشرين جلدة. وكذا كان يحدث نفس الأمر مع الأشخاص الذين تمت إدانتهم بارتكاب الجرائم. انظر

Shitberger, op. cit. pp. 68 – 69; Mihalovic, op. cit, p. 11.

ويبدو أن إقامة ميخائيلوفتش الطويلة بين الجنود الانكشارية قد جعلته يتحدث عن الصلاة والوضوء بشكل موضوعي وواقعي، فأشار إلى وجوب الصلاة على جميع المسلمين سواء أكان ذلك داخل المسجد أو في المنازل.، كما اهتم بالحديث عن مساجد المسلمين بشكل أكبر مما اهتم به شيلتبرجر، فأشار إلى اتساعها وتميزها بلونها الأبيض، بينما تتوسطها مآذن دائرية يصعد إليها المؤذن لأداء الآذان الذي لم يغفل أيضاً عن ذكر صيغته بشكل سليم(1). وفي ملاحظة جيدة منه ذكر أنه حتى إذا كان المسلم مسافراً فإنه يتوجب عليه أن يتوقف للتوضؤ ثم يتنحى عن الطريق جانباً كي يقوم بأداء صلاته(2).

وفي وصف نادر لمساجد المسلمين من الداخل، أشار ميخائيلوفتش إلى تميزها بالنظافة البالغة، وأنهم قد استخدموا قناديلا من الشحم الحيواني من أجل الإضاءة الداخلية بها، بينما تتوسطها المنابر التي كان الشيوخ يتلون القرآن عليها، على حين جلس المصلون على السجاد الذي تميز بنظافته للإنصات بانتباه كبير(3). كما اتفق الأسير الصربي مع شيلتبرجر في الإشارة إلى خلع المسلمين لنعالهم ووضعها في مكان محدد خارج المساجد. كذلك أشارا إلى عدم اتخاذ الرسوم والصور بداخلها، وعدم السماح للنساء بدخول المساجد طالما كان الرجال بداخلها، وكذا منع إدخال الأسلحة، فضلا عن عدم جواز دخول المسيحيين إليها(4).

على أن المسألة التي استحوذت على اهتمام الأسيرين لأسباب يسهل فهمها تتعلق بتركيزهما على الدور الكبير الذي لعبه خطباء المساجد في حث الجنود العثمانيين على قتال

ولاحظ الأخير عدم انتظام بعض الوزراء أو القادة العسكريين من العثمانيين في الصلاة في المساجد.

(1) The memoires of the Janissary, pp. 11, 13.

(2) Ibid. p. 11.

ولم يفت الأسيران الإشارة أيضاً إلى أهمية الوضوء لدى المسلمين، وأن نقضه إياه يوجب إعادته ثانية. كما لاحظ ميخائيلوفتش أيضاً اهتمام المسلمين بنظافتهم الشخصية"... فهم دائما ما يرتدون الملابس النظيفة لدى توجههم لأداء الصلوات، فإذا ما أصابها أى اتساخ فإنهم يقومون بتبديلها على الفور".

(3) Ibid. p. 13.

(4) انظر: Shiltberger, op. cit. p. 68.

المسيحيين. وعلى سبيل المثال أغفل ميخائيلوفيتش كافة القضايا الموضوعية التي تناولها خطباء الجمعة آنذاك، وقام باتهامهم على الدوام بالحدث على الجهاد ضد المسيحيين. فأورد في كتابه عبارات من تلك الخطب تحض على هذه الفكرة، وتشيد بالذين استشهدوا في ميادين القتال ضد القوى الأوروبية المسيحية(1).

كذلك الحال مع شيلتبرجر الذي توقف كثيراً أمام الدعاء الذي كان يؤديه المسلمون بعد الانتهاء من صلاة الجمعة، حيث يرفع المصلون أياديهم داعين الله بصوت واحد أن ينتقم من المسيحيين قائلين "اللهم فرق جمعهم". وفي إسقاط منه على وضعه في الأسر، وعلى تمنياته كمسيحي، يشير إلى أن المسلمين يبتلهون إلى الله بهذا الدعاء لأنهم يقولون إنه لو اتحد المسيحيون وساد السلام فيما بينهم فسوف ينتصرون على المسلمين(2).

وحدث أن قاوم ميخائيلوفتش انحيازه الديني والثقافي ذات مرة، وتعرض بحياد لتعامل خطبة الجمعة مع المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني، حيث سجل دعوة الخطيب إلى تطبيق أوامر السلطان العثماني مع الفاتح بعدم ظلم الرعايا المسيحيين أو اقتحام منازلهم وبساتينهم(3). وكأنه يورد الفارق بين معاملة العثمانيين للمسيحيين الخاضعين لهم، المختلفة عن معاملة أعدائهم المسيحيين الأوربيين والبيزنطيين وفي أراضي البلقان وطرابيزون وغيرها.

أدرك ميخائيلوفتش أيضا مكانة المصاحف عند المسلمين. فلاحظ تبجيلهم وتقديسهم لها، ومحافظتهم عليها وحملها معهم دائما. ولاحظ أن جميع الجنود العثمانيين يحملون أيضا مصاحف صغيرة تحت إبطهم في أوقات الحروب غير أنه أسماها أحياناً بالحمايلي

(1) The Memoires of the Janissary, p. 13.

"... عندما تشاهدون الجنود المسلمين العائدين من قتال المسيحيين امنحوهم الشرف والسلام. وقوموا بتقبيل أياديهم وأقدامهم وهكذا تكونوا قد شاركتم بشكل ما في الجهاد".. «صلوا من أجل أرواح آبائكم، ومن أجل أولئك الذين استشهدوا في الحروب ضد المسيحيين..».

(2) The Bondage and Trabels, P. 69.

(3) The Memoire of the Janissary, P. 29, 169.

hamahely[1]. كما لفت نظره أنهم كانوا يكتبون اسم «ذو الفقار» أسفلها زاعمين أن ذلك يجلب لهم النصر في المعركة.

وهنا تظهر من جديد تأثيرات أفكار الدراويش أتباع الطريقة البكتاشية الذين تسللت الأفكار الشيعية إليهم على سلوك الجنود العثمانيين والانكشارية الذين عاش ميخائيلوفتش بينهم ثماني سنوات. وما لم يذكره بوضوح أنهم استخدموا المصاحف الصغيرة كأحجبة للحماية ودفع الأخطار، وكذلك من أجل جلب النصر في المعركة. ومن الغريب على الصربي ميخائيلوفتش عدم الربط بين تلك الممارسة للتدين الشعبي لدى الجنود الانكشارية المسلمين على اختلاف مذاهبهم وبين بعض الممارسات التي تعبر عن التدين الشعبي المسيحي في البلقان كالتبرك بالأيقونات ورفات القديسين. وغير ذلك من الطقوس والمعتقدات الشعبية الأخرى السابقة على المسيحية في صربيا والبلقان، كانتظار هطول الأمطار في موعده السنوي والربط بينه وبين الخصوبة وبين عوامل أخرى متعلقة بالحياة البدائية للمجتمعات الريفية في نقاط التماس على الحدود المشتركة بين العثمانيين ومختلف شعوب البلقان[2].

غير أن الأمر لم يخل من إشارة طريفة حول سلوكيات بعض الجنود العثمانيين، فبعد أن ذكر ميخائيلوفتش أنهم يبجلون المصاحف ويقسمون عليها، لاحظ أن هذا لم يمنع بعضهم من أن يحمل أحياناً أحجبة صغيرة تحوي قطعا من الصابون البندقي ليقسموا عليها حين تعرضهم لبعض المواقف الصعبة[3].

---

(1) The Memoires of the Janissary, p. 9.

الحمايلي: حجاب يحمل دائما ويعلق على الجسم لحماية صاحبه من أوهام الشياطين والجان. انظر: محمد أحمد دهمان معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق، 1990م، ص64.

(2) Vryonis, “Religious Changes” pp. 154 – 156;

راجع أيضا: بيتر شوجر، أوربا العثمانية 1354 – 1804 (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة)، ترجمة عاصم الدسوقي، القاهرة، 1998م، ص 70 – 71.

(3) The Memoires, p. 9.

ويحوي حديث ميخائيلوفيتش السابق إشارة تعبر عن دلالة اقتصادية آنذاك، إذ إننا نعرف أن الصابون البندقي كان قد أثبت تفوقه على الصابون التركي المحلي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وهو ما جعل منه أحد أهم السلع والبضائع في حركة التجارة بين الدولة العثمانية والمدن الإيطالية[1]، بالإضافة إلى سلع أخرى كالدقيق، وحجر الشبه، والحبوب، والأقمشة، والمعادن.

كما استحوذت مسألة تحريم الإسلام لشرب الخمر على اهتمام الأسيرين أيضا[2]. وبصرف النظر عن ذلك، فقد ترك لنا الأسير الصربي إشارة أكثر دلالة على حدوث بعض الاستثناءات، فذكر أن بعض رجال الحاشية والقادة العسكريين كانوا يشربون الخمر[3]. مما يشي بعدم انتظام مسألة تطبيق العقوبات داخل المجتمع العثماني آنذاك.

على أنه عاد في ملاحظة لا تخل من دلالة أخرى ذات مغزى، فأشار إلى أنه عندما يتوجه الجميع إلى ميدان القتال لمحاربة المسيحيين، فإنهم لا يقربون الخمر على الإطلاق، في الوقت الذي يسمحون فيه للجنود المسيحيين الذين كانوا يحاربون معهم في صفوف الانكشارية بشرب الخمر دون ممانعة. حتى أنهم كانوا يقومون بتزويدهم بها وتلبية احتياجاتهم[4]. ولابد أن حاجة العثمانيين للاستفادة من تلك القوات المسيحية في ميادين القتال هي التي فرضت تلك عليهم إبداء المرونة في هذه المسألة.

ونظرا لطول فترة الأسر لدى المسلمين فقد حضر الأسيران صيام شهر رمضان[5] وأعياد

(1) Fleet, K, European and Islamic Trade in the Early Ottoman State, Cambridge, 1999, pp. 24 – 26.
(2) Shiltberger, op. cit. p72.; Mihalovic, op. cit. p 13.
ذكر شيلتبرجر أن نبي المسلمين قرر تحريمها بسبب العربدة وعمليات الشجار والقتل التي حدثت بسببها، بينما أكد ميخائيلوفتش على مسألة تحريم الخمر، فأشار إلى أنه ليس هناك مسلم حقيقي يعاقر الخمر، وإذا ما أدين شخص بذلك فإنه يعاقب بقسوة، دون أن يحدد لنا كيفية تنفيذ تلك العقوبة.
(3) Mihalovic, op. cit. p 13.
(4) Loc. Cit.
(5) The Bondage and Trabels, p. 70
الذي عرض لمسألة عدم جواز اقتراب المسلمين من زوجاتهم في نهار رمضان. كما انفرد عن زميله بالإشارة إلى أن الدين الإسلامي منح رخصة الإفطار للمرضى والمرأة الحامل والمرضعة.

المسلمين. فتحدث شيلتبرجر عن عيد الفطر الذي يستمر لثلاثة أيام، واصفاً صلاة خطبة العيد. ومرة أخرى فرضت الهواجس التي انتابت الأسير الألماني نفسها فلم يذكر من خطبة العيد سوى الدعاء بطلب العون والقوة من الله لمحاربة أعداء الدين الإسلامي. كما تعرض بتفصيل أكبر مع بعض التشوش لكيفية احتفال المسلمين بعيد الأضحى وقيامهم بذبح الشياه والثيران وتوزيعها على الفقراء[1].

وحدث لدى ميخائيلوفتش أيضا بعض الخلط فيما يخص أعياد المسلمين، فهو يسمي عيد الفطر بالعيد الكبير Buiuk Bayram، الذي يأتي قبل الحصاد ويستمر لثلاثة أيام. كما ذكر في اقتضاب أن عيد الأضحى هو العيد الصغير Cuczuk Bayram لدى المسلمين وهو يحل في وقت الخريف[2].

ويمكننا أن نحاول تفسير تحديده لعيد الأضحى في الخريف عن طريق رصد عدد مرات ورود عيد الأضحى خلال سنوات أسره الثمانية لدى العثمانيين 1455 – 1462م/ 860 – 868هـ، لنجد أنه قد حل بالفعل لخمس مرات في فصل الخريف، وذلك خلال شهور نوفمبر وأكتوبر وسبتمبر على الترتيب في الأعوام من 1455 – 1459م[3].

لكن الغريب أنه أورد عن حق ما سمعه من الحجاج العثمانيين الذين عادوا إلى بلادهم عن كيفية اقتطاعهم خرقاً صغيرة من كسوة الكعبة ليحتفظوا بها ولتكون دليلا دامغاً على قيامهم بالحج. وهو الأمر نفسه الذي ورد بعد ذلك في كتابات الأسير الإنجليزي جوزيف بتس الذي زار مكة المكرمة العام 1680م حيث أشار إلى أنه بعيد انتهاء فترة الحج قام شريف مكة بتحويل كسوة الكعبة إلى قطع صغيرة من أجل بيعها للحجاج الذين أقبلوا على

(1) The Bondage and Travels, p. 71.

ويبلغ التشوش مداه لدى شيتلبرجر الذي عاش وسط المسلمين لثلاثة عقود حينما يذكر أن الحجاج المسلمين يزورون فيه قبر الرسول والكعبة المشرفة في المدينة المنورة.

(2) Memoires, p. 3.

(3) عن ذلك راجع: ويستفيلد، ف، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، القاهرة، 1980م، ص 78.

شرائها[1].

وبعيداً عن التركيز على القضايا التي استوجبت انحيازاً ثقافياً من جانب الأسيرين، كمسألة بنية الدين الإسلامي ومبادئه التي حضت على اضطهاد وقتال المسيحيين أينما وجدوا، فقد توقفا أمام المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية الإيجابية للسكان المسلمين اللذين عاشا في أوساطهم. ولم يستنكفا الحديث عنها بحياد تام. من ذلك ملاحظة شيلتبرجر أن ملاك البيوت المسلمين لم يتقاضوا إيجاراً من شاغليها خلال شهر رمضان. وكذلك عدم مغالاة التجار المسلمين في أسعار السلع والبضائع، ولاحظ أنهم كانوا يقنعون بربح عادل ربما بلغ واحد على أربعين من سعر السلعة المباعة[2].

كما أشار ميخائيلوفتش أيضاً إلى أن المسلمين كانوا يتقربون إلى الله بعتق العبيد الموجودين لديهم. فضلا عن قيام الأثرياء منهم بتقديم الأضحيات من الشياه والماعز والجمال وكذا توزيع اللحوم والخبز والأموال على الفقراء. غير أن المثير في الأمر أنه ذكر بحياد يحسب له أن توزيعهم لتلك الصدقات لم يكن يفرق بين الفقراء المسلمين أو المسيحيين[3].

كما انفرد بذكر الرعاية التي أولاها السلطان العثماني محمد الفاتح لمئات الآلاف من رعاياه المسيحيين، فقد اهتم بإجراء تعداد سكاني لهم. بحيث دفع كل مسيحي ضريبة رأس تبلغ أربعين أسبره Aspri أو أقجة akca وهو ما يعادل قطعة ذهبية واحدة من الفلورين florin سنويا، بينما دفع المسيحي القادر على الكسب والربح قطعتين ذهبيتين. كما قام الفلاحون المسيحيون بدفع نصف الضريبة السلطانية إلى أصحاب التيمارات، فضلا عن عشر الحبوب الموجودة[4].

وهكذا فعلى الرغم من الانحياز الثقافي لميخائيلوفتش لصالح المسيحية، وضد الدين

---

(1) رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودرسة عبد الرحمن الشيخ، القاهرة، 1995م، ص54. ذكر بتس أن الحجاج يقبلون على شراء تلك القطع من كسوة الكعبة المشرفة لاستخدامها كحجاب ضد الخطر، وكذلك لوضعها فوق صدورهم عندما يوافيهم الموت.

(2) The Bondage, p. 75.

ذكر أن المسلمين "اعتبروا ذلك بيعاً عادلاً أمر به محمد كي يعيش الفقراء في سعادة إلى جوار الأغنياء".

(3) Memoires, p. 3.

(4) Ibid, p. 189.

الإسلامي، فقد استمر في الإشارة إلى التسامح الكبير الذي أبداه العثمانيون تجاه رعاياهم المسيحيين. فأشاد بأوامر السلطان محمد الفاتح لجنوده بعدم السير بخيولهم وسط أراضي المسيحيين، وأن من يتسبب منهم في إحداث خسائر في الحبوب أو يقوم بالاستيلاء عليها دون أن يدفع تعويضاً لذلك، سوف ينال عقوبة القتل نتيجة لذلك[1]. كما أورد مثال لجندى عثماني مسلم حكم عليه بالإعدام نتيجة لاستيلائه على لبن تمتلكه إحدى الفلاحات المسيحيات دون أن يدفع تعويضاً لذلك. كما أورد مثالاً آخر على عدالة السلطان الفاتح مع رعاياه المسيحيين الذين أمرهم بضرورة إرسال آلاف من الماشية أو الخيول للعمل في جر معدات الجيش العثماني، فضلا عن إرسال المؤن الغذائية، مقابل تحديدهم السعر المطلوب فيها بشكل عادل، حتى لا يتسبب ذلك في أية خسارة يمكن أن تحيق بهم[2].

ويمكن القول في النهاية أن رؤية الأسيرين شيلتبرجر وميخائيلوفتش عن الإسلام كانت مغايرة في تفاصيلها عن رؤى النخبة الأوربية. فلم يهتما بطعن الإسلام كدين أو وصمة بالوثنية المطلقة، ولا بطعن نبيه كما فعلت الكتابات الكنسية، بل استفادا من تعاملهما اليومي مع المسلمين، وإن لم يخل الأمر من التأثر بالرؤية الشعبية الصوفية للإسلام، التي تسللت إليها أيضا العديد من الروافد الشعبية، خاصة تلك التي رفعت علي بن أبي طالب إلى مقام النبوة.

كما تناول الأسيران بحياد موقف الإسلام من الدين المسيحي وتبجيله لعيسى ومريم، غير أنهما أفاضا في اتهام الإسلام بالحض على اضطهاد وقتل المسيحيين. وبفضل تجربتهما الخاصة التي مكنتهما من العيش والتعامل اليومي مع السكان المسلمين لسنوات طويلة، فقد اتصفا بالموضوعية في كثير من الأحيان عند الحديث عن العديد من الصفات الإيجابية التي تمتع به المجتمع الإسلامي الذي عاشا بداخله تجربة الأسر.

بالإضافة إلى ما سبق، لم يذكر الأسيران أنهما دخلا لمرة واحدة في جدال ديني مع المسلمين العثمانيين أو المغول. ومن الطبيعي أن نفترض أن ذلك قد لم يتم نظرا لحساسية

(1) Memoires, p. 189.
(2) Loc. Cit.

وضعهما في الأسر. وربما يرجع ذلك إلى خلفيتهما الدينية البسيطة بوصفهما في الأصل جنديين عاديين لا يتمتعان بثقافة دينية رفيعة تؤهلهما لذلك.

غير أن هذا يشي أيضا بالتسامح الديني الذي أبداه العثمانيون تجاههما، وهو ما تجلى عبر عدم إشارة الأسيرين إلى تعرضهما لأي اضطهاد يرغمهما على التحول إلى الإسلام.